القرآن الكريم وحملته في نيجيريا

موسى عبد السلام مصطفى أبيكن[١]، محمد كامل أحمد [٢]

الملخص

لقد منَّ الله على نيجيريا – قديماً وحديثًا – بعلماء يسهرون على إحياء القرآن الكريم وعلومه بمجهوداتهم الفردية، ومعارفهم الجامة، رغم المعوقات التي ينصبها أعداءه بداخل البلاد وخارجه . فقد قام بعضهم إلى ترجمة القرآن إلى اللغات النيجيرية الرئيسة، تعميمًا للفائدة، بينما قصره آخرون منهم إلى تفسيره، تسهيلاً لمغزاه للعوام والخواص، حينا تلو آخر. تحقيقًا للغاية التي يهدفها العلماء في انتشار الإسلام في أرجاء البلاد المعمورة فقد ابتدعوا طرقاً مختلفةً لترغيب أبناء المسلمين في تفهم الإسلام والقرآن بشكل خاص. ومشكلة البحث تنجم من المخلفات التي تركها المستعمرون الأجانب على البلاد، وقام هذا البحث بحل هذه المشكلة بطرق شتى، سلكها العلماء الغيورون على إحياء تراث الإسلام بوسائل متعددة. استخدم الباحثان المنهج الوصفي لبيان أحوال الناس في المجتمع النيجيري اتجاه القرآن الكريم، والمنهج التاريخي والسردي لبيان أحداث مرت على التعليم الإسلامي العربي النيجيري حينٌ من الدهر. وأهم النتائج التي توصل إليها البحث: العناية بالقرآن وعلومه، درسًا، وتفسيرًا، وتأليفًا على بقية المواد الأخرى في المجتمعات المسلمة النيجيرية، وإطلاق ألقاب عدّة على التلاميذ والعلماء الذين يشتغلون بالدراسات القرآنية بالبلاد، ووجود تحفيظ القرآن الكريم بالمدارس الخاصة والعامة في معظم مدن وقرى نيجيريا.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الإسلام، مدارس، حملة، نيجيريا.

Abstract

The Almighty Allah, indeed, bestowed Nigeria with scholars who studied the glorious Qur'an and its sciences meticulously and excellently trough their personal efforts despite the obstacles put forward by the enemies within and outside the country over many centuries. Part of these efforts is that some of these scholars translated the meanings of the Qur'an into Nigerian languages in order to get the proper meaning of the Qur'an clearly by the citizens while some of them did the Tafsir, so that, every Muslim will understand the Holy book with ease. They also innovated divergent ways in order to interest Muslims to study the book across the globe. This research is hereby carried out to solve problems created by foreign colonists in Nigeria and

[1] Musa A.M. Abikan, Department of Arabic And Islamic Studies, Faculty of Arts and Humanities, Kogi State University, P.M.B. 1008, Kogi State, Nigeria; E-mail: musaabikan@gmail.com

[2] Ahmad, Muhammad Kamil, Department of French, Portuguese and Arabic Languages, College of Humanities, Kwara State University, Malate; E-mail: mohammadkamelahmad65@gmail.com

methods used by scholars of the land to conquer or erase many of those problems/challenges. The method applied for this research are; descriptive and historical approaches while findings reveal that Nigeria scholars specifically concern with the teachings of the Qur'an and its sciences over other subjects and honor both scholars and students with specific nicknames and epithets particularly the memorizers and custodians of the Holy Book either in public schools or private institutions.

Keywords: The Holy Book, Islam, Schools, Custodians, Nigeria.

المقدمة: الإسلام و كيف انتشر في نيجيريا

في فجر يوم من أيام عام ٥٧٠م، أشرقت شمس الإسلام بواد غير ذي زرع، عند بيت الله الحرام، حيث أسكن سيدنا إبراهيم، أبو الأنبياء، ولده إسماعيل، ليقيم ذريته الصلاة بها، فكثرهم الله، وجعلهم أمةً مسلمةً إلى أن بعث فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم حتى أصبحوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر(الإلوري، ١٩٨٥م). خرجوا من غور تهامة، وجو يمامة، يحملون نور الإسلام، إلى سهول الأرض وجبالها، يبددون بنور الإسلام غياهب الكفر والإلحاد في كل مكان، فاستضاء به الكرة الأرضية في أقل من نصف قرن واحد من الزمان. فكان من الجهات التي استضاءت بنور الإسلام في الصدر الأول من القرن الأول، بلاد السودان التي تسمى بلاد التكرور أو غرب أفريقيا أو نيجيريا (الإلوري، ١٩٧٨م). ولما كان الإسلام ينتشر انتشارًا طبيعياً بما فيه من القوة الروحية، انتشر تدريجيًّا، إلى جميع أقطارها خلال قرنٍ واحدٍ من الزمان، وكان العرب هم أول من نشر الإسلام في غرب أفريقيا، ثم تلقاه منهم العجم كالبربر، وسائر أجناس السودان، وطبقاتهم، من ملوك، وأمراء، وعلماء، وفقهاء، وعباد، ونساك، كل قد ساهم في خدمة الإسلام ونشره، في حدود إمكاناته وطاقاته.

أهمية البحث

تنبع أهمية البحث من كونه تأتي في زمن طغى الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية في نيجيريا، حيث وضع أعداء الإسلام العراقيل بأنواعها أمام حملة الثقافة الإسلامية من الازدهار والتقدم. وقد ظل حملة القرآن وحفظته قروناً عديدةً يخدمون الذكر الحكيم بما لديهم من نفس ونفيس، وإن كان أغلبهم يعيشون على هامش الحياة. وهذا البحث يلقي الضوء عما يحدث في مجالات الثقافة العربية في البلاد عامةً، وفي ماهية القرآن خاصةً.

أهداف البحث

– تقصى الأساليب التي توظفها علماء نيجيريا في نشر الثقافة الإسلامية بين العوام والخواص في البلاد، قديماً وحديثًا.

– إعلام الناس ولا سيما الأجانب منهم قدرة علماء نيجيريا في التمسك بكتاب الله على رغم الهجمات المريرة التي تشن على حفظته من داخل البلاد وخارجه.

– الاعتقاد بأن القرآن الكريم شفاء، ورحمة، وهدى للناس، وفي أن القرآن لكفيل في تلبية حاجات البشر في كل زمان ومكان.

القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله الحكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد وقد وصفه محمد عبده، رحمه الله بأنه "حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلية، نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التي ألحقتها الأوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها، حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وماكان بينهم وبين أممهم، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالتهم" (المسلوت، ١٩٧٣م). قد نزل بلسان عربي مبين، فراع العرب سحره، وبهرهم أسره، وأخذ بمجامع قلوبهم بيانه الساحر، وأسلوبه المعجز، فتوهموه سحراً وما هو بالسحر، وظنوه شعرًا وليس بالشعر.

لقد كان القرآن الكريم المصدر الأول الذي اعتمد عليه المسلمون، وعلماء اللغة والأدب في تقعيد القواعد. وقد هدى الله العلماء الأولين إلى وضع علوم لخدمة القرآن، وفهم أسراره كعلوم البلاغة. وكان للقرآن أثره في حفظ لغة العرب من الضياع. وقد هجر كثير من الأمم التي أسلمت كالعراق والشام ومصر لغتهم التي يتكلمون بها من فارسية أو رومية أو قبطية، وأقبلوا على لغة القرآن يدرسونها، ويتعمقون في دراستها لأنها الوسيلة لفهم الإسلام وكتابه العزيز. (محمد خليفة، ١٩٧٨م).

وفي تأييد ذلك كله، يقول عيسى ألبي أبي بكر واصفاً كتاب الله العزيز بأحسن صفات، وأروع نعوت على أساس تجربته به قائلًا:

قف رتل القرآن صاح قليـــــلا لله درك تحسن الترتيـــــلا (أبوبكر، ٢٠٠٥م)
هل منذ كونك في الحياة وجدته سئمت قراءته فآت دليـــــلا
قول من الرحمن مالك أمرنـــــا زجرت مواعظه القرون الأولى
من دوام التكرار في ترتيلـــــــه هيهات ذلك أن يكون ذليلا

فكأنه بهذه الأفكار والاتجاهات يمثل ملايين مسلمي نيجيريا في الاعتقاد بالقرآن، واللجوء إلى حصنه الرصين في الأفراح والأتراح، والآلام والآمال. وقصارى القول، إن مسلمي نيجيريا قد اهتموا بهداه، بل عضوا عليه بنواجذهم في الأمور كلها.

مدارس تعليم القرآن في نيجيريا

لاتكاد قدم الإسلام تثبت في بلد من البلاد حتى تتأثل ثقافته في أرضها، ولا تلبث تظهر فيها مدرستان عربيتان، أولاها: المدرسة القرآنية للصغار، وثانيتهما مدرسة العلوم للكبار (الإلوري، ١٩٧٨م)، وتنقسم مدارس تعليم القرآن في نيجيريا إلى قسمين: فالأول هو القسم الذي يتعلم فيه الصبيان قراءة القرآن من غير حفظ. والثاني هو القسم الذي يتعلمون فيه حفظه. أما القسم الأول فإن الولد أو البنت تلتحق بهذه المدرسة عندما يبلغ أو تبلغ من العمر خمس سنوات أو أقل. ويطلق عليها في العرف المحلي "مدرسة اللوح" لأن الصبيان يتعلمون قراءة القرآن فيها وهو مكتوب على هذه الألواح. فهذا النوع من المدارس لاحصر له في نيجيريا لأنه قلما يجد المرء ولدًا أو بنتاً لم يلتحق أو لم تلتحق بها، إذ إن ضمير الأب المسلم لا يرتاح إلا بعد أن يدخل ولده أو بنته فيها.

طريقة التعليم في الكتاتيب

أما طريقة التعليم فهي أن يكتب المعلم للولد الحروف الهجائية أولا غير مشكولة على اللوح ليتعلمها ثم يكتب له سورة الفاتحة غير مشكولة أيضا ليتعلم النطق بحروفها متصلة ثم المعوذتين، ثم سورة الإخلاص فسورة اللهب، فسورة النصر وهكذا ثم يعود إلى الأول ليتعلم هذه السور مشكولة، ثم يطالب بحفظها. وهذه المرحلة تستغرق عدة شهور ثم يواصل قراءة السور مع الحفظ حتى يصل إلى سورة الأعلى أو سورة النبإ. وهنا تنتهي مطالبته بالحفظ في بعض المجتمعات الإسلامية. فيواصل قراءة السور وهي مكتوبة على ذلك اللوح إلى سورة النبإ. وهكذا حتى يختم القرآن كله قراءة، وفي أثناء ذلك، يتعلم بعض الطلاب الكتابة بنفسه فيريح معلمه من عبء الكتابة على اللوح.

فهذه الطريقة تأخذ الولد أربع سنوات أو أكثر قبل أن يختم القرآن كله. وهنالك سور معينة، وأحزاب يطالب المعلم أبا الطالب بالتصدق له بطعام أو شأة أو خروف إذا وصل إليها. وهذه الصدقة طبعًا تذهب إلى المعلم نفسه. ويبدو أن السبب في ذلك هو أن معظم الآباء أو أولياء الأولاد لا يعطون هذا المعلم شيئًا في مقابلة تعليمه لأولادهم. لذلك، اخترع المعلمون هذه الطريقة، وأوهموا الآباء أن عدم القيام بهذه الصدقة يجعل الولد غبيًّا، وثقيل الفهم (علي، ١٩٧٢م). لذلك، فإن الأولاد أنفسهم يلحّون على آبائهم في إعطاء هذه الصدقة ليفتح الله عليهم، ويزيدهم حدة الذكاء. أما إذا ختم الولد القرآن فلا بد أن يقيم والده احتفالًا رائعًا، يحضره الأقارب والأصدقاء ليباركوا في الولد أو البنت، وليملئوا جيب المعلم أيضًا بالمال (علي، ١٩٧٢م).

وقد اعتاد النيجيريون وما حولها من بلاد غرب أفريقيا أنهم لا يخلطون في تعليمهم القرآن للولدان بشيء من العلوم الأخرى بل يقتصرون على تعليم القرآن استظهارًا كالبرناويين والسنغاليين والهوساويين، أو سردًا كسائر اليرباويين الذين يكتفون بحفظ بعض السور القصار لتأدية الصلاة المفروضة (الإلوري، ١٩٨٥).

هذه هي الطريقة التي كانت سائدةً في القرن التاسع عشر الميلادي بل لا تزال موجودةً إلى يومنا هذا. وهي بلا شك، طريقة بدائية يتكبد المعلم والولد على السواء تعباً كبيرًا. إذ يعتبر كل ولد مرحلة على حدة، ويتطلب اهتمامًا خاصاً من معلمه.

مؤهلات المعلم في هذه المدارس

إن مؤهلات المعلم في هذه المدارس تبنى أساسًا على شرطين،

أولهما: أن يكون المعلم قادرًا على قراءة القرآن قراءةً صحيحةً.

ثانيه: أن يحفظ على الأقل حزباً واحدًا من سورة الأعلى إلى الناس فمتى ما تحصل على هذين الشرطين، فقد أصبح كفؤًا للتدريس في هذه المعاهد.

مدارس تحفيظ القرآن

تقع معظم هذه المدارس في شمال نيجيريا كبرنو، وكنو، وكدونا، وكوغي، في مدنها وقراها أيضاً، وعددها قليل بالنسبة إلى الكتاتيب، ولا يلتحق بها الولد في الغالب إلا إذا أتم مرحلة الكتاتيب.

طريقة التعليم فيها

إن طريقة الحفظ في هذه المدارس هي أن يكتب التلميذ الثمن الأول من سورة البقرة على لوحة ثم يأتي به إلى المقري الذي يقرؤه إياه بدقة، مشيرًا إلى جميع أماكن المد، والادغام، والوصل، والوقف، ومخارج الحروف، وما إلى ذلك ثم ينصرف التلميذ لحفظ هذا الثمن حتى إذا أتقن حفظه، عاد إلى المقرىء وأسمعه إياه، فإذا اقتنع به أمره بالمضي إلى الثمن الذي يليه، وهكذا حتى يحفظ القرآن كله. وتختلف مدة الحفظ حسب اختلاف قوة ذاكرة التلميذ، ولكنها في الغالب تتراوح بين ثلاث سنوات وخمس، وربما زادت على ذلك، والحق أن حفظهم للقرآن حفظ متقن للغاية إلا أنه ينقصهم جهلهم المطبق بمعناه، ولكن هناك عدد لا يستهان به يجمعون بين الحفظ والمعنى (علي، ١٩٧٢م).

إن لمدارس تحفيظ القرآن في نيجيريا أثرٌ إيجابيٌّ، وغبطة يالها من غبطة لدى المسلمين الغيورين على دينهم. وقد ازدادت هذه المدارس بازدياد التوعية الإسلامية الناجمة من الناشئين من جهة الشبان والشابات ولا سيما بعد إعلان بعض الولايات الشمالية بتطبيق الشريعة الإسلامية في ولاياتهم ومحافظاتهم، فتكاثرت عددها في عواصم البلاد التي كثر فيها المسلمون حبًّا في القرآن، وتعظيمًا لجلاله، وترغيبًا في الفهم بمضمونه.

ويبلغ عدد الحفاظ والحافظات إلى خمسمائة حافظٍ على وجه التقدير، ومن الأهمية بمكان أن التسهيلات الحديثة من الشرائط المسجلة المنتشرة في العالم بأسره بأصوات مختلفة للقراء المشهورين في العالم العربي قد ذللت بعض الصعوبات التي يواجهها الشعب النيجيري بالقياس إلى القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

فأصبح الطالب أو الطالبة يقضي بضع سنين على تدريبه وتمرينه إلى أن يتخرج حافظاً. أضف إلى ذلك أن الأستاذ لا يعلن بهذه المزية لطالب حفظ القرآن إلا إذا اجتاز امتحاناً عسيرًا، يدور حول أماكن المد، والإدغام، والوصل، والوقف، ومخارج الحروف، غالبًا أمام زملائه، ومتقدميه في الحفظ، ولفيفٌ من العلماء المفوّهين، والمتخصصين في القرآن وعلومه.

مثالب هذه المدارس

ولهذه المدراس مثالب، أبرزها :

١–كون قراءة عندهم صماء، لا يفهم الأطفال معاني ما يقرأون.

٢– عدم العناية بقواعد الصحة في المجلس، وآلة الدرس، وشرب الماء، كالجلوس على الأرض الجرداء، أو الحصير الوسخ، وشرب الماء للجميع بإناء واحد من جرة واحدة.

٣– عدم العناية بتعليم الحساب، وبعض علوم أخرى لازمة للحياة، وأمور الدين الواجب معرفتها على كل مسلم.

٤– منع الصبيان من اللعب المنظم في كثير من الكتاتيب.

٥– سيادة الفوضى على جو المدرسة لتعدد القراءات بتعدد القراء في مختلف السور (الإلوري، ١٩٨١م)

الإجازات العلمية

ليس في صدر الإسلام إجازات علمية يجيزها المعلم لتلاميذه، وإنما فكرة اخترعها العلماء في العصر الحديث، فالعلماء الذين يقومون بتدرس في هذه المدارس، يعطون طلابهم النابغين، إجازات علمية، وربما كانت شفهيةً أو كتابيةً، يصرحون لهم فيها بتدريس ما تلقوه عنهم (فضل، ١٩٩٨م). فكان الأستاذ إذا لمس في تلميذه نبوغاً، وآنس فيه فهمًا عميقًا للمادة التي درسها له، ووثق من أنه سيقوم بأداء الرسالة العلمية على الوجه الأكمل، أجازه أن يدرس العلوم التي أتقنها تحت إشرافه دون أن يؤدي الطالب امتحاناً كتابيًا. وهكذا كان الحال في نيجيريا، فإن من حفظ القرآن وألمّ بعلومه، خلع عليه أستاذه لقب "قوني" وأجازه في تدريس القرآن وتحفيظه لأبناء المسلمين. والحائز لهذا اللقب، يكتسب مكانةً عاليةً لدى عامة الناس، ويلقى الإجلال والاحترام بينهم. ويحق له أن يفتح مدرسةً قرآنيةً، كما

يحق له منح اللقب لمن بلغ من تلاميذه هذه الرتبة. ويتاسبق الناس إلى تزويجه بناتهم له مع قيامهم بدفع المهر، ولوازم العرس.

والإجازات العلمية التي تمنح إلى الذين أتقنوا العلوم الإسلامية، هي الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده، وحسن سلوكه، وانكبابه على العلم وتفرغه للدراسة والبحث، وكانت تلك الإجازات بمنزلة شهادةٍ شخصيةٍ تكريميةٍ من الأستاذ لتلميذه، وليس له ذكر أو ارتباط بمعهدٍ معيّنٍ بل يقال إنه من تلاميذ العالم الفلان. وهناك كثيرٌ من العلماء الذين نبغوا في كثير من العلوم، وحصلوا على أعلى الإجازات العلمية التي عادت بالنفع الجليل للبلاد والعباد.

ألقاب حملة القرآن الكريم في نيجيريا

لكل من اتخذ تدريس القرآن والعلوم الإسلامية مهنةً له في نيجيريا، يطلق عليه الشعب بعدة ألقاب على حسب مفهومهم لها، فمن بين هذه الألقاب أستاذ، وفقيه، ومالم، وألفا، وغوني، وشيخ، وسيّدي.

١- أستاذ: لقب شائع في البلاد الإسلامية ثم انتشر إلى نيجيريا بدخول الإسلام إليها. ويطلق هذا اللفظ على كل من يقوم بالتدريس بصرف النظر عن مكانته الاجتماعية أو درجاته العلمية .

٢-فقيه: ومن الألقاب التي اشتهر بها العلماء في نيجيريا عامة، وفي الامبراطورية الكانمية بوجه خاص، الفقيه أو فكي وهو تحريف للفظ فقيه. ولفظ فقيه يطلق على العالم بالأحكام الشرعية. أما في بلاد كانم، وسائر غرب أفريقيا، فلم يعد لفظ فقيه قاصر على المتضلع بالفقه فحسب بل توسعوا في استعمالها فأطلقوها على من حفظ القرآن ولو جزءًا منه.

٣- شيخ: ومن الألقاب المتداولة في نيجيريا لقب شيخ، ويعنون به وصول العالم إلى مرتبة كبرى من العلم، وحينما تضاف إلى لفظ الإسلام يصير لها مدلول أعظم لتصبح "شيخ الإسلام" واستعمل لفظ شيخ لدى علماء الطرق الصوفية وأتباعهم فيقول أهل الطريقة القادرية: الشيخ عبد القادر الجيلاني (مؤسس الطريقة القادرية) وأهل الطريقة التجانية، شيخنا أحمد التجاني (مؤسس الطريقة التجانية) ومن الذين حملوا هذا اللقب في نيجيريا الشيخ عثمان بن فوديو، لأنه اشتهر به في حياته ومماته.

٤- معلم: ومن هذه الألقاب المعلم، وبعضهم يقولون "مالم" تحريف لفظ معلم، وذلك بسبب العجمة، وعرف هذا اللفظ بتوسع في نيجيريا عامة، وفي بلاد هوسا خاصة. وقد شاع استعماله حتى صار يطلق على كل من لبس زي علماء الإسلام، وإن لم يكن منهم .

٥- ألفا: وهذا الإسم اشتهر فقط بين قبيلة يوربا في نيجيريا، والمقصود منه هو من كان يعلم الناس العلوم العربية الإسلامية أو مجاب الدعوة أو يساعدهم على قضاء الحوائج عن طريق الدعوات من المأثورات النبوية. ولعلهم يعنون به إنسان كألف في القوة والمساعدة.

٦- غوني: ومن الألقاب المشهورة قوني أو غوني بالغين، وقد ذاعت هذه الكلمة في بلاد كانم، ويقصد به قوي في القرآن وعلومه. وهذا اللقب، يطلق على الذين أجادوا حفظ القرآن، تلاوةً وحفظًا. ويعقد لذلك امتحان له أمام جمهور من كبار الحفاظ، وفيهم أستاذه، وعند اجتيازه الامتحان، يخلع عليه هذا اللقب، ويقام لهذه المناسبة احتفال بهيج يحضره خلق كثير من الفقهاء والحفاظ وعلية القوم، ويكون يومًا مشهودًا، تذبح فيه الذبائح تكريماً لصاحبه. وحاصل على هذا اللقب، تكون له مكانةٌ رفيعةٌ لدى الخاصة والعامة، ويلقى الاحترام والتقدير من الحكام والرعية، ويزوجه علية القوم بناتهم، ويقومون بدفع مهورهن من أموالهم، وهم يقصدون من ذلك نيل رضاه لإيمانهم بأن حافظ القرآن والعالم يشفع يوم القيامة فيشفع لمن هم على صلة رحم به، لذلك يبادرون بوصل أرحامهم به، عسى الله أن يدخلوا الجنة بشفاعتهم يوم القيامة. (فضل، ١٩٩٨)

٧- سيّدي: ومن الألقاب المشهورة عندنا لقب سيدي أو سيدنا، ويطلق على معلمي القرآن الكريم أو على من سبق غيره من التلاميذ إلى الأستاذ بسنين كما يطلق على الذين ألموا بكثيرٍ من فنون العلوم كاللغة، والشريعة، والسيرة النبوية إلى غير ذلك من العلوم الإسلامية. ولكن هذا اللقب استعمل بتوسع على أصحاب الكرامات، والأولياء الصالحين، ومن أولئك الذين حملوا هذا اللقب سيدي عبد الكريم المغيلي، وسيدي عبد الرحمن التميمي وأمثالهما.

إن المثقف الإسلامي في نيجيريا يمر-عادة- بمراحل عدة، أولها مرحلة الكتاتيب، حيث يبدأ به إثر انفطامه من الرضاعة، ويحفظ ما لا يقل عن عشرين سورة يؤدي بها الصلوات الخمس، ونوافل أخرى قبل أن ينتقل إلى مرحلة أخرى إن أراد له أبويه التقدم والتوسع في العلوم العربية الإسلامية، وإلا يختار له عملاً يقتات به في مستقبله. وما من مسلم في نيجيريا -شمالًا وجنوبًا- إلا ويرسله أبوه إلى الكتاتيب التي بالقرب منهم إن لم يكن عالماً، وإن كان منهم، فيكتفي على تربيته تربيةً إسلاميةً ليكون خلفًا له، حيًّا وميتًا.

معيشة علماء غرب أفريقيا

إن أغلبية علماء غرب أفريقيا وأئمتها لا يتقاضون أجورًا آخر كل شهر، وإنما كانوا يعتمدون على أنفسهم ويأكلون من عرق جبينهم، ومما عملت أيديهم من زراعة، أو صناعة، أو خياطة أو تجارة، ويضيفون إلى ذلك مايأتيهم من الصدقات والهدايا والهبات. وقد ابتدعوا لأنفسهم مكسبًا آخر يجلب لهم الأرزاق في الحفلات الدينية التي كانوا ولا يزالون يقيمونها حسب تقاليد البلاد الاجتماعية والدينية، منها حفلة تسمية المولود يوم سابعه، وحفلة النكاح، وحفلة

الجنازة، وحفلة الشكر، ونحو ذلك من الحفلات المستحدثة عندهم (الإلوري، ١٩٨١م)، وفي ضيق معيشة معلمي القرآن الكريم بنيجيريا، يقول أحدهم شاكياً (محمد ثوبان، ٢٠١٠م):

يا رب قد ضقت ذرعًا بالهموم وقد رجوت فضلك يارحمن لم أزل
أرجوك والحال لايخفى عليك على ماكان بي من حياة البؤس والعطل
لقد تعلمت علم الدين في لغـة أنزلت فيها كتاب الذكر والمثل
صرفت فيه حياتي من بدايتهـا إلى أواسطها والنفس في شغل
لكن على غير جدوى في الحيـــاة وقد ظلت معيشتنا ضنكا على الفشل
يا خالق الخلق يارحمان قاطبـة يامن يرى ماخفى ياعالم الجمل
أصلح له الحال وارفع مستواه إلى أعلى المكان كمن أعليت في زحل
يسر له العيش والأرزاق مسرعة يا خالق الخلق أدرك صاحب الزلل

لقد أجمل نكباب اللغة العربية إثر دخول الاستعمار البريطاني على تربة غرب أفريقيا في صورتها اليوم، الشاعر النيجيري الشاب، عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي (٢٠٠٦) في يائيته، إذ قال:

إلام تقول هيا ياأخيـــــا إلى العربية الفصحى وهيا؟!
وكم من ناطق بالضاد فينا فصيح القول صار بها وغيا
تعلمنا لسان العرب تعبـا وللأجواع في الأحشاء طيا
تعلمناه حبا للإلـــــــه وللقرآن والأهدى نبيـــــا

تمثل هاتان القصيدتان آلام مثقفي اللغة العربية في غرب أفريقيا بشكل عام، وفي نيجيريا بشكل خاص. ولضيق معيشة القائمين بتعليم القرآن، ينفر من حوضه كثير من طلبة العلم اليوم حتى أبناء العلماء أنفسهم.

١- أثر القرآن الكريم في الشعر العربي النيجيري

لقد كان القرآن الكريم المصدر الأول الذي اعتمد عليه المسلمون، وعلماء اللغة والأدب في تقعيد القواعد، وقد هدى الله العلماء الأولين إلى وضع علوم لخدمة القرآن، وفهم أسراره، كعلوم البلاغة، وكان للقرآن أثره في حفظ لغة العرب من الضياع. وقد هجر كثير من الأمم التي أسلمت كالعراق، والشام، ومصر، لغتهم التي كانوا يتكلمون بها من فارسية أو رومية أو قبطية، وأقبلوا على لغة القرآن يدرسونها، ويتعمقون في دراستها، لأنها الوسيلة لفهم الإسلام، وكتابه العزيز. ولم يكد العرب الذين حفظوا تراث الأدب العربي يسمعون القرآن حتى بهرتهم بلاغته فأقبلوا عليه يحفظونه، ثم

استلهموا من معانيه وأساليبه. فبلاغته هي التي سجد لها الأعرابي الفصيح قبل أن يسلم حين سمع قارئًا يرتل قوله "فاصدع بما تؤمر"، وقال سجدت لفصاحته (محمد خليفة، ١٩٧٨)

وفي القرآن صور كثيرة من التشبيهات الرائعة كتصويره الحياة الدنيا بقوله "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس". وكم فيه من كنايات كقوله تعالى "أو لامستم النساء" كناية عن الجماع. وكل ذلك وغيره مماجاء في القرآن كان المعين الذي نهلت منه فحول الأدباء حتى انتشوا من رحيقه، فملئوا الدنيا بسحر بيانه وجماله.

ومن الجدير بالذكر أن الشعر العربي النيجيري قد تأثر بالقرآن الكريم من نواحى شتى، أهمها العناية به في تفسير علوم القرآن، والاقتباس منه في أشعارهم بغض النظر عن الموضوع الذي كان يعالجه الشاعر ثم مراعاة التعاليم القرآنية، ودروسه البالغة عند الإدلاء ببنات أفكارهم، وفي توسلاتهم به لأمر كان يقلق بالهم.

٢- العناية بعلوم القرآن الكريم

كانت حركة الإصلاح التي قام بها الشيخ عثمان بن فودي في القرن التاسع عشر الميلادي في بلاد حوس من أهم الأحداث التي شهدتها منطقة غرب أفريقيا، وكان من أهم الإنجازات التي حققتها هذه الحركة، تطهير عقول الناس من كثير من الأوهام والخرافات التي كانت سائدة في المجتمع، وتوجيه المسلمين إلى تعليم دينهم القويم، وتمييز الحق من الباطل. وكان من ثمار هذه الحركة أن تم القضاء على كثير من مظاهر الفساد الاجتماعي والخلقي، وحلت القيم الإسلامية السامية محل القيم الوثنية الفاسدة. وفوق ذلك كله، انتشر نور العلم، وتبدّد ظلام الجهل، فقد وجه زعماء هذه الحركة همهم لتحرير عقول الناس من براثن تقاليد الجاهلية، وإطلاق سراحها من قيود العوائد الذميمة، واتخذوا لذلك تثقيف الناس وتعليمهم وسيلة لهم، فعكفوا على إرشاد الناس، وتوجيههم بكل الوسائل المتوفرة في ذلك الحين، فوعظوا ودرسوا وألفوا.

وقام عبد الله بن فودي الجهاد بمساهمة كبيرة في هذا المجال، وبخاصة في مجال التأليف، فألف في كل فن عرفه العلماء في هذه المنطقة بتحويل منثور إلى منظوم، وقدم للطلاب كتبا دراسية في علوم القرآن، والتفسير، والحديث وأصوله، والفقه وأصوله، والنحو، والصرف، والتوحيد، والمنطق، والعروض، والتصوف، والسيرة، والسياسة. وهو أول من ألف في تفسير القرآن وعلومه في نيجيريا. وله ثلاثة كتب في التفسير، وهي نيل السؤل من تفاسير الرسول وضياء التأويل في معاني التنزيل وكفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن.

وترك أيضًا في علوم القرآن ثلاثة كتب كلها في النظم وهي المفتاح للتفسير وسلالة المفتاح والفرائد الجليلة وسائط الفوائد الجملة.

وقد نظم عبد الله بن فودي كتاباً بعنوان "الفرائد الجليلة"، وقد وصلت أبيات الكتاب إلى ثلاثة وتسعين وثلثمائة بيتا تحت سبعة أبواب. بدأ الباب الأول بما يتعلق بنزول القرآن، وركز الباب الثاني على قراءاته المختلفة، واعتنى الباب الثالث بخط القرآن، وكان الباب الرابع على تعليمه، والباب الخامس على أحوال حامليه، والباب السادس منه تحدث عن أحوال القرآن بينما تمحور الباب الأخير على فضائل القرآن، وهو يقول :

الحمد لله العليم المنـــزل خير كتابه لخير مرســـل
وخصنا بكوننا من أمتـه وناصرين دائمًا لملتـــه
صلاته مع السلام دائما عليه مع أصحابه وعمما
جميع أهل ملة القـــرآن ما قام دينه على الأديـان
وبعد فالقرآن بحر زاخر والعلماء فلكه المواخـــر
كل الفنون منه تستمد وكل ما خالفـه فرد

وهكذا غلب على ذاكرته روح الإسلام، وحبه للقرآن في الإقبال على الدفاع بكتاب الله العزيز، والخوض في حماه بقلمه ولسانه إلى انتشر نور الإسلام من زمانهم إلى جميع البقاع في المنطقة. وأصبح معروفًا ومعترفًا به أمام كلّ باغٍ وطاغٍ لجهاده، وعلومه الفياضة، وتأليفاته القيمة . وإذا نظرنا إلى كتاب آخر له في الموضوع ذاته، فإن الغاية من تأليفه لاتختلف، والغاية هي فهم القرآن وما يحتويه من علوم أخرى.

٣- التعاليم القرآنية

إن المثقف النيجيري الذي تربى على العلماء الصالحين في نيجيريا، لابد أن يتحلى بالقيم الخلقية، وعلى التعاليم القرآنية بشكل خاص، لأنه يعلم أن الدروس القرآنية التي تلقاها منهم إنما الغاية منها نشرها إلى أماكن أخرى حسب الاستطاعة بالقلم أو باللسان، فهو يدافع أولاً القرآن الكريم، والسنة النبوية كلما واجهته الظروف القاسية، أو انقادت له الحياة بطيبها ويسرها، ومرها وحلوها. وإذا تخرج على يدهم طالب، وكان شاعرا نابه الذكر، فقد تحتم عليه أن يغرس هذه التعاليم على عقول الآخرين من الناشئين، رجالا ونساء، بواسطة انتاجاته الشعرية لتسير الأمة على هداه، لذلك، يتدفق الشعراء إلى هذا الاتجاه في أشعارهم.

٤- التوسل بالقرآن

إن شعراء نيجيريا قد توسلوا بالقرآن في أشعارهم إيمانا منهم به وبتأثيره الفعال إما لجلب خيرات، وإما لدفع مضرات من الإنس والجن، لذلك، يهرولون إلى حماه إذا مسّ أحدهم مكروهًا، فيقرأ جزأ منه أو كله إذا شاء فيرى الاستجابة من فعله حالا، لذلك، كثر الشعر العربي في رياضه، ولا سيما في التوسل به أيام الشدة. ولعل أرجوزة القاضي إسماعيل إبراهيم بن عثمان خير مثال لهذا الاتجاه. فقد توسل بسور القرآن الكريم في ثلاثة وستين ومائة بيت، بادئاً بسورة الفاتحة مع البقرة إلى آخرها، وقد جاء في صدرها (علي، ١٩٧٢م):

توسلي بالسبع من مثاني في دفع كل حاسد وشأن
وهي التي قد وسمت بفاتحه رائجة في كل خير ناجحه
بسورة يذكر فيها البقـــره تعوذي من العتاة الفجره
توسلي في طلب التعميـر بآل عمران ذوي التطهير
تعوذي بسورة النســـــاء من كل واقع من البلاء

وهكذا توسل الشاعر بسور القرآن، وكذلك فعله الآخرون منهم، وقد يختلف البحر والقافية، ولكن الهدف منه واحد. وقد اخترنا هذه القصيدة للتمثيل، وشهرتها بين آلاف مسلمي نيجيريا. إن سادتنا الأجلاء من جهابذة العلماء، قد لعبوا دورًا حيويًا في تطوير الثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا بالإنتاج حينًا، وبالتدربس والوعظ والإرشاد حينًا آخر. وقد امتازت فرقة منهم بالشعر فأدلوا بدلوهم في الميدان، وإن كان القرآن الكريم دليلهم. لذلك، وجدنا في الشعر العربي النيجيري قصائد عديدة تؤيد القرآن العظيم بكل اتجاهاته وأساليبه وأفكاره من جهة، ومن الإقتباس منه والانقياد لتعاليمه من جهة أخرى.

ولله در القائل :

الشعر ليس بنافع مالم يكن بكتاب رب العرش دومًا يدفع

إن القرآن لايزال ينبوعًا يرتوي منه رواد الفصاحة والبلاغة، ولن يستطيع أن ينكر بلاغته إلا من عميت أبصارهم وبصائرهم. وسيظل خالدا على الوجود يحفظ لغة العرب حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٥- الاستعانة بالقرآن الكريم في قضاء الحوائج

إن مسلمي نيجيريا يؤمن بالقرآن الكريم إيمانًا جازمًا، وهو يتلوه كل يوم إما لطلب الخيرات، أو دفع المضرات، فإذا نزل به مكروهٌ، فإنه يقرأ جزأ منه، يراه أكثر تأثيرًا لاستنزال الخطوب التي ألمت به. فكثيرًا ما يقرأ المسلم العادي بعض السور

رجاء خيرات، واتقاء مخاطر، فسورة يس، وسورة الملك، وسورة الكهف، وسورة الواقعة، تنال مكانًا خاصًا لأنهم قد حفظوها على ملازمته وتكراره لها بل عندهم أشهر من قفا نبك.

علاوة على ذلك، فإن العلماء يعرفون ما لكل من هذه السور من كنوزها الذهبية، وكيفية استعمالاتها للوقاية، والاسترزاق، وتيسير الوضع وما إلى ذلك، فيشرحون ذلك لقاصديهم إما على جعل أو بدون مقابل، لذلك يهرول العوام إلى ساحاتهم لقضاء حاجة من حوائجهم بواسطته. وإذا عين جزء منه بملازمته آناء الليل وأطراف النهار على نية جلب خير أو دفع شر، فإنه يصادف ما وصفه العالم به، خصوصًا إذا استوفى الرجل الشروط التي قد يشترط عليه، وإن كان بعضهم يخفى كيفية استعماله إذا علم أن القاصد لا يحسن الأدب بالقرآن وأهله أو ليس من أهل ملته.

يقول أحد شعراء نيجيريا على تجربته به قائلا (مصطفى، ٢٠٠٥م):

كتاب الله ربـــــاني ونور كل وجداني
وشتت شمل أعدائي وحرك جو عرفاني
وفجر سر إحساسي وقوم كل زيغــان
وجذب كل أفئــدة وأطفأ نار عدوان
وأتلوه بأصـــــوات تجـدد شأن آذان
أرتله برمتـــــــه وأدرسه بإمعــان

٦- تفسير القرآن الكريم

تعتبر أيام رمضان في المجتمع النيجيري وقتا خصيبا للمسلمين كافة، لأن المسلمين يتدفقون إلى حلقات الوعظ التي تتناسب وأذواقهم الفردية، والعلماء الذين يتصدرون المجالس أكثرهم علماء أكفاء، وهم بدورهم يستعينون بالتفاسير القرآنية المختلفة في شرح ءاياتها وإن كانوا يميلون إلى تفسير الجلالين لقدمه بينهم، إضافة إلى ذلك، فإنهم يتلقون معانيه باللغات المحلية. وإن استطاع الواعظ أن يأخذ خمسة أحزاب مثلًا في سنة، فإنه يتقدم من أين توقف في السنوات المقبلة، وأكثر المساجد في المدن والأرياف، لها إمامها وهو الذي يتولى هذه المسئولية إن رأت الجماعة فيه الكفاءة.

فنما بذلك العشق بالقرآن وأهله عند مسلمي نيجيريا، صغيرًا أم كبيرًا، أميراً كان أم مأمورًا، رجالًا ونساءً. وقد تعود كثير منهم أن يتلو القرآن الكريم بنفسه سردا طوال أيام رمضان زهاء خمس مرات تقل وتكثر حسب ظروفه الشخصية، فتراه أحيانا يتلوه وهو في فناء منزله أو في معمله بل في أي مكان تأتى له. والغاية القصوى من ذلك أن ثواب رمضان لم يفته بقراءته. والمفسر يفسر القرآن بلسان قومه، إن هو هوسويا تراه يفسره بلغة قومه، وإذا كان يورباويا فإنه يكتفي بلغته إلا في بعض الأماكن التي يستعمل المفسر اللغة الإنجليزية (اللغة الرسمية للبلاد). وذلك إذا

كان المستمعون ذوي ألسن شتى كالجامعات، والمعاهد العليا والمجلس العام، فإن المفسر في هذه الحالات يفضل اللغة الإنجليزية على لغته وإلا فما بلغ رسالته لأن في الجامعات قبائل تنتمي كل منها إلى لغة معينة. وفي نيجيريا على سبيل المثال، ما يزيد على ثلثمئة لغة. ومن الأهمية بمكان أن العلماء التقليديين يرون القرآن الكريم آخر كتاب يأخذه منهم ولعل السبب في ذلك يرجع إلى إتقانه قبل مغادرة معهده، والتآدب بآدابه، والحفاظ على ديباجه وجوهره.

٧- وليمة القرآن

من أسباب انتشار الإسلام في بلاد يوربا ما ابتدعه العلماء من نظام الحفلات لبعض شعائر الإسلام، تعظيمًا لها، وتنشيطًا للمسلمين عليها، وترغيبًا للكافرين في الإسلام، وتقام هذه الحفلات في المساجد، كحفلة تولية الإمامة، واعتناق كافر للإسلام، وبعضها في المدارس كحفلة ختم القرآن (الإلوري، ١٩٧٨م). إن الوليمة من الوسائل التي تشجع التلاميذ على الإقبال بتعلم القرآن الكريم، والتسابق إلى حفظه وإتقانه، بل إنها حافز من الحوافز الأساسية التي تعين على تعلم الكريم، قراءةً، وكتابةً، وحفظًا، لكونها هي المركب الموصل إلى مرامي الشريعة الإسلامية. والجدير بالذكر، أن من إنجازتها، أنها تمهد السبيل أمام الراغبين في الإلتحاق بالكليات العربية الإسلامية، فهي بلا شك، النواة الأولى لغرس الثقافة الإسلامية العربية في نفوس الناشئين (ثالث، ٢٠٠٩م).

واجب المسلمين في تعليم القرآن والدين

إن مما يدعو إلى الدهشة والاستغراب في الوقت الراهن أن يعتمد المسلمون في بعض البلاد على الحكومة اللادينية أو الحكومة المسيحية في نشر تعليم القرآن، وإصلاح مناهج الكتاتيب. فإن الحكومة النيجيرية مثلًا هي التي أودت بها، أوبعبارة أخرى قللت من شأنها بطريقة غير مباشرة.

كيف أشكو إلى طبيبي مابي والذي أصابني من طبيبي

إن من واجب الجمعيات والمنظمات الإسلامية في كل بلد أن يقوموا بإنشاء مدارس خاصة لتعليم أبنائهم القرآن، والدين الإسلامي، على نمط الكتاتيب بأسلوب يتفق مع روح العصر الحديث، وهو حق يملكه كل مسلم في كل وطن إسلامي وغير إسلامي.

نتائج البحث:

لقد توصل البحث إلى أن العلماء هم الذين يدافعون عن بيضة الإسلام، والقرآن الكريم، بمختلف الوسائل منها: التدريس، والتأليف، نثراً وشعرًا، والاهتمام به على بقية المواد الأخرى.

إطلاق ألقاب عدّة على التلاميذ النابغين منهم، والعلماء العاملين المشتغلين بالدراسات القرآنية، تجويدًا، وحفظًا، وتفسيرًا.

دور العلماء في أيام رمضان في تفهيم المجتمعات النيجيرية المسلمة معاني القرآن الكريم بمختلف اللغات المحلية.

وجود تحفيظ القرآن بالمدارس الخاصة والعامة في معظم قرى ومدن نيجيريا.

الخاتمة

القرآن العظيم، آية باقية على وجه الدهر، ومعجزة خالدة من جهة فصاحة لفظه، وبلاغة نظمه وأسلوبه، ودقة أحكامه، وأوامره ونواهيه، وبيان أسماء الله وصفاته، ودلائله اليقينية، وبراهينه العقلية في أمثاله المضروبة.

كتاب الله مصدر كل علـم به أجلي وأجلي كل ظلم (علي، ١٩٧٢م)
ولا أبغي به بدلا بتاتـــــا ولكن أستزيد به علومـــي
هو النور المبدد للديـاجـــي دياجي الجهل نعم طريق قوم
ولم يك يعتريه مدى الليالـي أبـــاطيل ولايبغي بضيـم
هو التنزيل من رب حكيم فنعم كتاب مولانا الرحيـــم

المراجع

آدم عبد الله الإلوري. (١٩٨٥). الإسلام اليوم وغدا في نيجيريا، القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى.

_____. (١٩٨١). نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي، لاغوس: مكتبة دار النور، الطبعة الثالثة.

_____. (١٩٧٨). الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان فوديوالفلاني، مكان النشر وناشره غير مذكورين.

أبوبكر، إمام. (٢٠١٢). الاتجاهات الكبرى في بحث إعجاز القرآن، مجلة قسم الدراسات العربية الإسلامية، جامعة ولاية كوغي، نيجيريا.

أحمد شيخ عبد السلام وغيره. (٢٠٠٦). مشكلات التكافؤ في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة يوربا، مجلة قسم الدراسات العربية والإسلامية، جامعة ولاية كوغي، عدد ٢.

ثالث، أبوبكر عبد الله. (٢٠٠٩). حركة اللغة العربية في أرض إغالا بولاية كوغي نيجيريا، إلورن: مطبعة ألبي، نيجيريا.

خليفة، محمد محمد. (١٩٧٨). الأدب والنصوص في العصرين الجاهلي وصدر الإسلام، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأزهرية، طبعة ١٩٧٨م.

عبد الحميد، محمود المسلوت. (١٩٧٣). الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، الجامعة الليبية، الطبعة الأولى.

عبد الله بن فودي. (٢٠٠٢). الفرائد الجليلة وسائط الفوائد الجميلة في علوم القرآن، الناشر: طن إغى، اسم مكان غير مذكور، الطبعة الأولى.

عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي. (٢٠٠٩). زاد الإخوان في المناسبات الحسان، لاغوس: مركز ضياء العلوم العربية والثقافة الإسلامية، إجادو-إجابي، الطبعة الأولى.

علي، أبوبكر. (١٩٧٢). الثقافة العربية في نيجيريا من ١٩٧٥-١٩٦٠م، بيروت: مؤسسة عبد الحفيظ، البساط، الطبعة الأولى.

فضل، كلود الدكو. (١٩٩٨). الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لامبروطورية كانم، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى.

محمد ثوبان بن آدم عبد الله الإلوري. (٢٠١٠). ديوان العلامة آدم عبد الله الإلوري، لاغوس: مركز العلوم العربية والإسلامية، الطبعة الأولى.

مصطفى سعيد اولاومي. (٢٠٠٥). حاوية الخلجات، لاغوس: مطبعة الحكمة للتصميم والنشر، الطبعة الأولى.

موسى عبد السلام مصطفى أبيكن. (٢٠١١). تعليم القرآن الكريم وترجمة معانيه في نيجيريا، مجلة مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية – إسلام آباد، ٤٦، ٢٠١١م.